

في التّسليمِ القرآني
من لادن في القرآن الكريم
دراسة في بلاغة التعبير

Min Laddin , from His Excellency ,
in the Glorious Quran
A Study on Expression Eloquence

أ.د. عبدالهادي خضير نيشان
جامعة بغداد . كلية التربية للبنات

Prof.Dr. `Abidalhadi Khudheir Neeshan
College of Edication/ Bin Rushd , University of
Baghdad

ملخص بحث

يخطئ كثير من أبناء العربية بصياغة بعض العبارات متأثرين بالأساليب الغربية ، ومن ذلك بناء العبارة بصيغة الفعل المبني للمجهول ثم استعمال التركيب (من قبل) للإفصاح عن الفاعل ، بما يُخلُّ ببلاغة العبارة العربية القائمة على الإيجاز والتكثيف.

وقد يلجأ بعضنا إلى استبدال التركيب (من لَدُن) بالتركيب السابق (من قبل) محتجاً بورود هذا التركيب في القرآن الكريم...

في هذا البحث نقف عند الآيات القرآنية التي ورد فيها هذا التركيب (من لَدُن) وعددها سبع عشرة آية ، لم تكن منها سوى اثنتين جاءتا بصيغة بناء الفعل للمجهول

ثم استعمال التركيب (من لَدُن) للإفصاح عن الفاعل ، وكلا الآيتين مخصوصة بالقرآن الكريم في الأفعال (أَحْكَمْتُ) و (فُصِّلْتُ) و (تُلَقِّي) و فاعلها كلها هو الله سبحانه وتعالى.

أما المواضع الخمسة عشر الباقية ، فليس فيها بناء للفعل المجهول ، وإنما جاءت (لَدُن) مضافة إلى ضمير المتكلم أو المخاطب أو الغائب ، وهي جميعاً متعلقة أيضاً بالله سبحانه وتعالى سوى آية واحدة وردت فيها مضافة إلى ضمير المتكلم العائد على النبي موسى (عليه السلام).

Abstract

Many of the Arabic speaking language influenced by western styles mistake the form of some phrases such as the passive verb phrases using 'min kibal=for' to refer to the subject of the sentence which breaks the rhetoric of the Arabic phrase that is based on Concision and Intensification. Some might substitute the form 'min ladun=by' with the form 'min kibal=for' depending on the use of this form in the Qura'n.

In this research, the researcher stops at verses from the Qura'n that use the form 'min ladun=by' which are seventeen verses. Only two of them are in the passive form using 'min ladun=by' to refer to the subject. Both verses are exclusive to the verbs 'ohkimat= tightened', fusilat= analyzed or separated' and 'tulaqa=sent' whose subject is always 'Allah' [be praised]. The other fifteen verses are not in passive form where 'min ladun=by' is added to the first singular pronoun or second or third which are all refer to 'Allah' [be praised]. This is except for one verse that it is added to the first singular pronoun referring to the prophet Moses [peace be upon him].

المقدمة

دأب كثير من المتكلمين هذه الأيام ، فضلاً عن متعاطي لغة الكتابة اليومية، في الصحافة والمراسلات الرسمية ... وسواها ، على استعمال تعبير (من قبل) بعد بناء الكلام للمجهول في الجزء الأول من العبارة ، ثم تبيان الفاعل ، بعد هذا التعبير، كقولهم : وقد اتخذت خطوات عملية (من قبل) الحكومة ، أو كما يصادفنا على كثير من صفحات العنوان في الرسائل والأطاريح الأكاديمية قولهم : رسالة (أطروحة) قُدمت الى مجلس كلية.... من قبل....

وإذا كان بعض الأكاديميين من أهل الاختصاص ، ممن ينه على خطأ هذا التعبير ، يوصي باستبدال (من لَدُن) ب (من قبل) مستندين في هذا التصويب إلى ورود (من لَدُن) في القرآن الكريم ، فإننا نرى خصوصية التعبير القرآني في كثير من المواضع بما لا يمكن القياس عليه ، فضلاً عن ان هذا الاستبدال لا يغير حقيقة يجب التنبه عليها وهي إنَّ بناء العبارة على وفق ما تقدم ، اي بنائها على المجهول ، ثم الافصاح عن الفاعل باستعمال (من قبل) او (من لَدُن) ليس اسلوباً عربياً ، انما هو ترجمة حرفية للتعبير الغربي (by) عند استعمالهم مثل هذا التركيب وهو ما يجافي الاسلوب العربي

القائم على الايجاز ، واستعمال أقل الألفاظ في ابلاغ المعنى ، هذا الايجاز الذي صار سمة من سمات البلاغة العربية ، بل رديفها ، حتى صار أحدهم إذا سئل : ما البلاغة ؟ قال الايجاز^(١).

فالجملة العربية تبنى على اساس المعنى المتكون في النفس ، وما يقتضيه المقام ، فإذا كُسرَت الزجاجة ، وكنا نجهل الفاعل ، بنينا الكلام على المجهول وقلنا كُسرَت

الزجاجة ، وإن كنا نعرف الفاعل جاءت عبارتنا متوافقة وهذا المقام فنقول كسرَ (فلان) الزجاجة وبذا يتوضح لنا التواء العبارة وتطويلها ، بما لا يضيف للكلام بلاغة أو جمالاً حين نقول : كُسرَت الزجاجة من قبل (من لدن) فلان ، فهو بلا شك لغوٌ من القول وإطالة لا مسوغ لها ، ولا بلاغة فيها .

إن تكرار ما تقدم وشيوعه بين كثير من أوساط المثقفين ، وحتى الأكاديميين المتخصصين ، حدانا بالعودة الى الآيات القرآنية الكريمة المتضمنة لهذا التعبير (من لدن) والوقوف عندها ، في محاولة لتلمس خصائص التعبير القرآني والبلاغة الكامنة وراء استعماله ، بما لا يسمح لنا اتخاذ بعض صيغته أو استعماله قياساً لتسويغ أخطاء بعضنا في تعبيراتهم أو اساليبهم .

لقد ورد هذا التعبير (من لدن) في الآيات القرآنية الآتية :

١- ((الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ)) (هود/١)

٢- ((وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)) (النمل/٦)

٣- ((رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)) (آل عمران/٨).

٤- ((هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)) (آل عمران/٣٨)

٥- ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها وَيؤتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)) (النساء/٤٠).

٦- ((وَإِذَا لَأَيْنَاهُمْ مِّنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا)) (النساء/٦٧).

٧- ((وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا)) (النساء/ ٧٥).

٨- ((وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)) (الاسراء/ ٨٠).

٩- ((فَيَا لَيْدِرِ بِأَسَا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا)) (الكهف/ ٢).

١٠- ((إِذِ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)) (الكهف/ ١٠).

١١- ((فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)) (الكهف/ ٦٥).

١٢- ((قَالَ إِنْ سَأَلْتِكِ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبِي ^{صل} قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا)) (الكهف/ ٧٦).

١٣- ((وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا)) (مريم/ ٥).

١٤- ((وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا)) (مريم/ ١٣).

١٥- ((كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا)) (طه/ ٩٩).

١٦- ((لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آتَاةً لَّا تَخَذُنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ)) (الانبيا/ ١٧).

١٧- ((وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا ۗ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْيِي إِلَيْهِ نَمْرَاتٌ كُلَّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) (التقصص/٥٧).

عند انعام النظر في الآيات القرآنية السابقة التي جاء فيها استعمال التعبير (من لَدُنْ)، يلاحظ انها جاءت جميعا مخصوصة بالله سبحانه وتعالى، فيما عدا آية واحدة، هي قوله تعالى: ((قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا)) (الكهف/٧٦) التي جاءت على لسان نبي الله موسى (عليه السلام) في حديثه مع الرجل الصالح (الخضر).

ولا شك في ان ورود هذا التعبير في سبعة عشر موضعاً من ثمانية عشر، مخصوصا بالحديث عن الخالق سبحانه سواء بصيغة المتكلم (ست مرات) أو بصيغة المخاطب (سبع مرات) أو بصيغة الغائب (اربع) مرات، يؤكد خصوصية التعبير القرآني، بما قد لا يميز لنا القياس عليه في بعض مواضعه، هذه الخصوصية التي تفرد بها السياق القرآني الذي أوجب هذه الطريقة في التعبير، مما قد لا نجده في مقتضيات التعبير الأنساني اليومي.

أول ما يلفت الانتباه في الآيات القرآنية التي تضمنت التعبير (من لَدُنْ) انها لم تأت تبيانا للفاعل، بعد بناء الكلام للمجهول، الا في موضعين هما: قوله تعالى ((كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)) (هود/١) وقوله تعالى ((وَإِنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)) (النمل/٦)، أما في المواضع الستة عشر الباقية، فقد جاء الكلام فيها جميعا مبنيًا للمعلوم، كقوله تعالى ((رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)) (آل عمران/٨)، وهذا ما يجعلنا نقرر ابتداء ان (من لَدُنْ) التي يقترحها بعضنا بديلاً لقولنا (من قبل) عند بناء الكلام

للمجهول، لم يُؤثّر عن العرب استعمالهم لها في دوائر كلامهم ، ووردت في موضعين فقط في القرآن في سياق خاص نوضحه فيما يأتي :

يلاحظ أن سياق الآيتين السابقتين واحد ، وهو الحديث عن القرآن الكريم، (كتاب) كما جاء في الآية الأولى و (القرآن) في الآية الثانية ، وفي كلتا الآيتين كان الحديث عن مصدر هذا القرآن ، سواء في إحكام آياته وتفصيلها في الآية الأولى، أو مصدر تلقيه في الآية الثانية ، ومرجع الكلام في الآيتين هو الله سبحانه وتعالى، وبذا ففي كلا الآيتين ، وعلى الرغم من بناء الافعال فيها للمجهول (أحكمت ، فُصِّلَتْ، تُلقَى) فإن الفاعل فيها جميعا معلوم ، ولا شك فيه وهو الله سبحانه وتعالى، وبذا فان ورود الآيتين بهذه الصيغة من التعبير لم يكن الغرض منه اخفاء الفاعل في أول الكلام ثم التصريح به بعد التعبير (من لَدُنْ) كما يحاول بعضنا استعماله في دارج كلامنا ، إنما وراء ذلك غاية بلاغية نحاول أن نتلمس بعضاً من أسرارها فيما يأتي من الكلام.

إننا نرى إن محور الآية الأولى ((كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)) هو الإخبار عن إحكام آيات القرآن ، ثم تفصيلها ، أولاً ، ثم يأتي الحديث عن مصدر هذا الإحكام والتفصيل وهو الله سبحانه تعزيراً لهذا الإحكام وتوثيقاً لهذا التفصيل ثانياً ، وهو ابلاغ للسامعين بما تمتاز به الآيات القرآنية من صفتين هما أقرب الى التقابل منهما الى التشابه والأئتلاف أي (الإحكام والتفصيل) ، وهو ما تنبه عليه الزمخشري بقوله وفيه طباق حسن لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها أي بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور ^(٢) أي بتعبير أوضح ، إن آيات القرآن قد جمعت صفتين ، إذا ما أخذتا على ظاهرهما ، فإنها متناقضتان ، ولكن هذا القرآن المعجز بأسلوبه هو وحده الذي خُصَّ بهذا اللون من التعبير كما خص بجمعه بين

"صفتي الفخامة والعدوبة وهما على الأفراد في نعوتها كالتضادين" (٣) كما قال الخطابي.

وبذا فإن قوله تعالى ((من لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ)) ليس الغاية منه بيان الفاعل لمن جهله ، وإنما الإشارة الى أن الجمع بين هاتين الصفتين (الإحكام والتفصيل) - على تقابلها - لا يكون بمقدور أحد غير الله (الحكيم الخبير).

ولعل ما يقوي ما ذهبنا إليه ، إن الافصاح عن الفاعل بعد (من لَدُنْ) جاء بطريق حذف الموصوف (الفاعل) واقامة الصفة مقامه ، إذ ان أصل التعبير هو (فاعل أو خالق) حكيم وخبير ، ولا شك في ان الذي اقتضى هذا الحذف هو ابراز الصفة لا الموصوف ، (الله سبحانه وتعالى) لأن سياق الآية يوضح الفاعل ، وان المراد هو ابراز صفتين من صفات الله سبحانه تؤكدان احكام آيات القرآن وتفصيلها فجاء التعبير (من لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ).

وبذا تناسبت صفتا (الإحكام والتفصيل) مع صفتي (حكيم وخبير) سواء من حيث التوافق العددي (صفتان لصفتين) أو من حيث تناسب كل صفة على انفرادها مع ما سبقها ، فقوله تعالى (أحكمت) ناسبها الوصف (حكيم) من جهة الاشتقاق أولاً ومن جهة المعنى ثانياً ، لأن الإحكام لا يكون إلا من حكيم عارف بالأمور مدرك لما يفعله وما يتبغى منه ، وكذلك قوله (فُصِّلَتْ) ناسبها الوصف (خبير) لأن التفصيل والشرح لا يمكن أن يصدرا إلا عن خبير يعرف تفاصيل ما صنع .

إن مدار الأمر في سورة هود - في رأينا - هو الحديث عن القرآن ذاته (كتاب) ، لا مصدره ، وهكذا حُذِفَ المبتدأ من الكلام (هو) ونكَّرَ الخبر تعظيماً لهذا الكتاب وتفخيماً لأوصافه ، ثم جاءت جملتا الوصف (أحكمت ، فصلت) أشبه بكونهما

تعريفين له ، فيما جاء الإخبار عن مصدر هذا الأحكام والتفصيل (من لَدُنَّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) متأخراً وهو يمكن أن يعد صفةً ثالثةً لكتاب ، أو خبراً بعد خبر ، وهكذا اجتمعت اربعة أمور (حذف المبتدأ ، وتنكير الخبر، وبناء الفعلين للمجهول (أحكمت ، فصلت) ، والوصف بالجمل الثلاث) وجاءت جميعها متسقة مع غاية السياق الأساسية وهي التعظيم.

ولعل استعمال الفعلين المبنيين للمجهول (أحكمت ، فصلت) ومجئها جملتين وصفيتين للخبر (كتاب) فيه غاية بلاغية دقيقة يجدر الاشارة إليها وهي ان هذه الطريقة من التعبير جمعت صفتين قد تبدوان في ظاهرهما متناقضتين وهما دلالة الفعل على التجدد والحدوث ، ثم استعمالها جملتين دالتين على الوصف بما يدل عليه الوصف من الثبات والرسوخ ، وبذا تتوضح لنا فريدة التعبير القرآني وعمق دقائقه الأسلوبية التي قد لا تجيز لنا القياس عليه ، لخصوصية هذا الاسلوب وعجز التعبير الانساني عن اللحاق ببلاغته.

كما أن النظر في سياق هذه الآية التي افتتحت بها سورة هود ، يوضح لنا ان ابتداء السورة بالحديث عن إحكام الآيات وتفصيلها ، انها هو رد على سلوك المشركين عند سماعهم القرآن الكريم ((أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)) (هود/٥) فهم يستغشون ثيابهم كراهة لاستماع كلام الله تعالى ، كما كان قوم نوح يفعلون حين جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم حتى لا يستمعوا لدعوتهم إليه ...

فالأهم في هذه الآيات ، الذي استحق افتتاح السورة به ، وتعظيمه ليس مصدر الاحكام والتفصيل ، إنما ما في هذه الآيات من حكمة وفضل لو عرفها

المشركون ، لما أقدموا على ما أقدموا عليه ، ولو استمعوا لها لأصابهم خير كثير ، وما كان لهم ان يصمّوا آذانهم عنها لأن الحكمة هي ضالة كل انسان ، يطلبها من أي وعاء خرجت ، وبذا نفهم ان بداية الآية ، بل السورة كلها هي تقريع للمشركين في مخالفتهم منطق العقل والصواب في تصرفهم هذا ، وبذا تقدم وصف الآيات بالاحكام والتفصيل بالبناء للمجهول ثم جاء التصريح بصفة القائم بهذه الاحكام والتفصيل وهو (الحكيم الخبير) زيادة في تقريعهم وتبكيتهم على جهلهم .

وقد تنبه المفسرون على ان (ثم) في الآية ((أحكمت آياته ثم فصلت)) ليس معناها التراخي في الوقت ، ولكن في الحال ، كما تقول هي محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل وفلان كريم الأصل ثم كريم الفعل ^(٤) بما يؤكد رسوخ هاتين الصفتين وتداخلهما في الآيات القرآنية ، فقد أنزلت وهي تحمل هاتين الصفتين المتقابلتين ، بما يؤكد اعجازها البلاغي وعجز البيان الانساني عن مجاراتها .

أما الآية الثانية التي جاء فيها التعبير (من لَدُنِّ) بعد بناء الفعل للمجهول ، فهي قوله تعالى : **((وَإِنَّكَ لَتَلَقِّي الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ))** (النمل/٦) وأول ما يلاحظ على الآية ، التوكيد المتأتي من (إِنَّ) و(اللام) ، لتأكيد أن النبي محمد ﷺ ليس هو مصدر هذا القرآن ، انما هو يتلقاه من الله سبحانه وتعالى ، وهذه الآية شأن سابقتها ، لم يأت بناء الفعل للمجهول فيها لاختفاء الفاعل ، فمصدر التلقي معروف بدهاء وهو الله سبحانه وتعالى ، وبذا فان التصريح بصفتي الفاعل (حكيم ، عليم) بعد (من لَدُنِّ) لم يكن الغرض منه التعريف بالفاعل ، بل تأكيد صفتين مهمتين للقرآن ، وهما الحكمة والعلم ، ولذا جاز هنا حذف الموصوف (الفاعل) والاكتفاء بالصفة ، لأنها المرادة .

ولعل من موجبات بناء الفعل (تُلْقَى) للمجهول في هذه الآية ، أن القرآن الكريم لا يُلقى الى النبي محمد ﷺ من الخالق مباشرة بل يقوم بهذه المهمة (الملك) أو (الوحي) وهو جبريل عليه السلام فيكون معنى الآية إنك لتعطي لأن الملك يلقيه إليه من قبل الله تعالى ^(٥) وهو ما يؤكد استعمال الفعل (تلقي) من تلقاه اي استقبله ^(٦) أي أخذه من رسول جاء به إليه.

وإذا ما عدنا إلى السياق الذي جاءت فيه الآية ، وانعمنا النظر فيما تقدمها من الآيات فهي الآية السادسة من سورة النمل - وما جاء بعدها - نجد ان بداية السورة هي ((طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)) (النمل ١-٣) وبذا فان الآية السابقة تأتي تنويجاً للآيات التي افتتحت بها سورة النمل وهي تعظيم القرآن الكريم وآياته ، سواء بها فيها من معان أو بما ضمت من صيغ ودلالات ، فقد جرى الاشارة لآيات القرآن باسم الاشارة تلك تعظيماً لها وتفخيماً لشأنها ، ثم تنكير (كتاب) وما فيه من تعظيم ، ثم وصفه بأنه (مبين) بما تدل عليه لفظة (بيان) من دلالة على الاشياء وبصيغة اسم الفاعل ، فضلاً عن التنكير في قوله (هدى وبشرى) ، كما يجب التنبيه هنا على قوله تعالى ((آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ)) والقرآن هو الكتاب وهما بمعنى واحد ، فلماذا جرى وصفه بهذين الوصفين ، لقد اشار بعض المفسرين الى الغاية البلاغية من ذلك وهي ليفيد انه مما يظهر بالقراءة ، ويظهر بالكتابة ، وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الأمرين جميعاً ^(٧) ...

ان كل هذا التعظيم للقرآن الكريم والتفخيم لآياته وبيان ما فيها من خير ورحمة وكونها هدى وبشرى ، انها خصّ الله بها عباده الذين آمنوا بالقرآن وصدقوا ما فيه ، فهم مقيمون للصلاة مؤتون الزكاة مؤمنون بالآخرة ، وبذا فانهم ليسوا في حاجة الى

السؤال عن مصدر تلقي هذا القرآن فهم ليسوا جاهلين بأن هذا القرآن هو كتاب الله المنزل على نبيه، فهذا ثابت في جنانهم، مغروس في وجدانهم، انها أرادت الآيات ان توضح لهم كل هذه الصفات الجليلة في القرآن الكريم، ولذا جاء التعبير عن مصدر كل ما في القرآن بهاتين الصفتين (حكيم، عليم) بحذف الموصوف (الفاعل) واقامة الصفة مقامها، على ما تقدم في الآية السابقة، ولا يغيب عن بالنا هذا التوافق والانسجام الدلالي بين قوله تعالى (هدى، وبشرى) في وصف مصدر هذا القرآن. واياته، ثم قوله تعالى (حكيم، عليم) في وصف مصدر هذا القرآن وآياته، فالهداية لا تكون الا بمتابعة (حكيم) والاستنارة برأيه واتباع ما يقوله، والبشرى لا يأتي بها الا (عليم) بالأمر مطلع على الاسرار، بما تحمله صيغة (عليم) من المبالغة اذ ان عليم بمعنى عالم الا ان فيه مبالغة... ووصفه بأنه عليم يفيد انه متى صح معلومه. فهو عليم به^(٨). ويمكن بذلك ان نقف على سر المغايرة الأسلوبية بين هذه الآية القرآنية في قوله تعالى ((من لَدُنَّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)) والآية السابقة من سورة هود ((من لَدُنَّ حَكِيمٍ خَيْرٍ)) ذلك أن ما جاء في سورة النمل بعد قوله تعالى ((حَكِيمٍ عَلِيمٍ)) هو سرد لقصة النبي موسى ﷺ ثم قصة النبي سليمان ﷺ بتفصيلاتها، وسرد مثل هذه القصص لا يكون الا من راوٍ عليم، مطلع على تفاصيل ما يروي جميعاً فناسب قوله تعالى (عليم) هنا سياق الآيات التي جاءت بعد هذا الوصف، وهو ما أكده الزمخشري بقوله هذه الآية بساط وتمهيد لما يريد ان يسوق بعدها من الأقايص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه^(٩).

وحيث نعود الى الآيتين السابقتين (هود والنمل) نجد ان في امكاننا الاستغناء عن (لَدُنَّ) دون الاخلال بالمعنى، اذ يمكن القول في الآية الاولى ((كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنَّ حَكِيمٍ خَيْرٍ)) وفي الآية الثانية ((وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنَّ

حَكِيمٍ عَلِيمٍ)) ، هذا ما يوحيه ظاهر الآيتين ولكن التعمق فيها والوقوف على ما قاله أهل اللغة في (لندن) يوضحان لنا سراً من أسرار فريدة التعبير القرآني وأعجازه فقد قرر أهل اللغة فرقاً بين (عند) و (لندن) التي بمعناها ، وهو ان (لندن) مبنية و (عند) معربة وكان القياس بناءها لافتقارها الى ماتضاف اليه... ولكن اعربوا (عند) لانهم توسعوا فيها ، فأوقعوها على ما هو ملك الشخص ، حضره أو غاب عنه ، بخلاف (لندن) فإنه لا يقال : لندن فلان ، الا اذا كان بحضرة القائل (١٠) وهذا الشرط متحقق في الآيتين السابقتين بطريقة خاصة تجلي اعجاز القرآن ، وتؤكد ما قررناه في ان بناء الافعال (أحكمت ، فصلت ، تلقي) للمجهول ليس الغرض منه اخفاء الفاعل ، فكيف يتسق اخفاء الفاعل (وهو شرط بناء الكلام للمجهول) وشرطهم لأستعمال (لندن) في ان لا يكون الكلام الا بحضرة القائل ما هو ملك الشخص ، ومن غيره سبحانه وتعالى يمتلك الحكمة والخبرة والعلم وكيف لا يكون حاضراً في كل زمان ومكان سبحانه.

إن اختصاص الخالق سبحانه بهذه الصفات (حكيم ، خير ، عليم) ولا سيما في ارتباطها بكلام الله (القرآن الكريم) اقتضى استعمال التعبير (من لَدُنْ) متقدماً على الموصوف وصفته (حكيم ، خير ، عليم) ، فليست هذه الصفات الثلاث هي ما يمكن ان نجدتها عند البشر ممن يمكن ان يوصفوا بها ، انها هي صفات خاصة ، وعلى نحو خاص ، لا يمكن ان يوصف بها غير الخالق سبحانه وتعالى .

أما الآيات القرآنية التي ورد فيها التعبير (من لَدُنْ) ببناء الكلام للمعلوم ، فهي خمس عشرة آية ، جاءت فيها (من لَدُنْ) ست عشرة مرة ، كلها متعلقة بالله سبحانه وتعالى ، عدا واحدة جاءت على لسان النبي موسى ﷺ كما تقدم.

يلاحظ على (من لدن) في هذه المواضع الستة عشر ، أنها جميعاً اضيفت الى ضمير ، إذ لم تضاف (من لدن) إلى اسم صريح في القرآن الكريم ، في غير الموضوعين المتقدمين اللذين بني فيهما الكلام للمجهول (اي في سورتي هود والنمل).

وفي هذه المواضع الستة عشر اضيفت (من لدن) الى ضمير المتكلم سبع مرات وإلى ضمير المخاطب سبع مرات ، وإلى ضمير الغائب مرتين.

أ- ضمير المتكلم :

وكان ذلك في الآيات القرآنية الكريمة الآتية :

١- ((وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) (القصص/٥٧).

٢- ((وَإِذَا لَأَيْنَاهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا)) (النساء/٦٧).

٣- ((فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنَ لَّدُنَّا عِلْمًا)) (الكهف/٦٥).

٤- ((وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَرِكَازَةً وَكَانَ تَقِيًّا)) (مريم/١٣).

٥- ((كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَّدُنَّا ذِكْرًا)) (طه/٩٩).

٦- ((لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ)) (الأنبياء/١٧).

٧- ((قَالَ إِنْ سَأَلْتِكِ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا)) (الكهف/٧٦).

فالأية الأخيرة هي الموضع الوحيد في القرآن الكريم ، الذي جاءت فيه (من لُدُن) مضافة الى ياء المتكلم ، وذلك على لسان النبي موسى عليه السلام ، وهي الموضع الوحيد في القرآن الكريم لم تأت فيه (من لُدُن) مرتبطة بالله سبحانه وتعالى .

في الايات الست الاولى، التي جاءت بضمير المتكلم ، جاءت جميعها على لسان الخالق سبحانه ، وبضمير الجمع (نا) ، وقد جاءت في خمس آيات منها في معرض الحديث عن نَعَم الله على الناس، وماخص به بعضا من انبيائه وعباده المخلصين ، سواء أكان ذلك (رزقاً) كما جاء في الآية الأولى، او (اجراً) كما جاء في الثانية، او (علماً) في الثالثة، او (حناناً) في الرابعة ، أو (ذكراً) في الخامسة.

فيما جاءت (لهوا) في الآية السادسة على سبيل النفي لا الايجاب ، اي نفي الله سبحانه عن ذاته اتخاذ الله سبيلاً له فيما ابداع من خلق السماوات والأرض وهي من دون شك داخلة في نعم الله على الناس ، لكون هذا الخلق والابداع جاءا لحكمة أرادها الله لصالح مخلوقاته جميعاً.

١- ((وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِيبُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) (الفصص/٥٧).

تأتي هذه الآية في معرض الرد على أهل مكة الذين أقرروا بدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي الاسلام ، وهكذا يأتي وصفهم لها بأنها (الهدى) اي انها الحق ، ولكنهم يخافون ان يتبعوه ويخالفوا بذلك العرب فأنهم سيتخطفونهم من أرضهم لأنهم قلة ، فكانت هذه الآية جواب ما ادعوه فألقمهم الله الحجر... فاذا خوّلهم الله ما خوّلهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم ان

يعرضهم للتخوّف والتخطف ويسلبهم الأمن اذا ضموا الى حرمة البيت حرمة الأسلام^(١١).

يلاحظ على خطاب الله سبحانه لأهل مكة قوله (نمكّن) دلالة على السيادة والأقتدار، إذ لم يقل (نهيء) أو (ننشئ) أو سواها مما هي بمعناها. فقد أطلق سبحانه لأهل مكة كل شؤون بيته حتى جلتهم العرب لذلك، فهم متمكنون بهذه الولاية وجاء تخصيصهم بها بقوله تعالى (لهم) تأكيداً لأختصاصه سبحانه لهم بها.

وجاء تنكير (حرماً) لأفادة التعظيم اي تعظيم بيت الله، كما أفاد كذلك التعميم، اي ان الحرمة لم تقتصر على البيت فحسب بل شملت مكة كلها، ثم يأتي المجاز العقلي بعلاقة المفعولية (آمناً) تأكيداً لهذا المعنى، اذ ان (الأمن) صفة لما يعقل وهم أهل مكة في هذه الآية، ولكن المجاز العقلي عظم هذه الحرمة وهذا الامان حتى صار المكان نفسه آمناً إشارة الى ان كل من دخله فهو آمن، وبذا جعل الأمن صفة للمكان تعظيماً ومبالغة بما وهب الله لهم من أمن في هذه البقعة المباركة.

اما قوله تعالى ((يجبى إليه)) فهو اشارة الى ان هذه الخيرات التي تأتيهم هي فريضة أو جبتها الله على كل البقاع، تأتي الى هذه البقعة جباية واجبة، وليست منحة أو منة من أحد، ويلاحظ بناء الفعل للمجهول، دون تخصيص تلك الجباية بفاعل ولعل سبب ذلك الاشارة الى ان هذه الجباية واجبة في كل زمان ولازمة في كل مكان، دون ان يختص ذلك بزمن مُعيّن أو أناس معينين.

ان انعام النظر في الآية الكريمة، يبين لنا المنة العظيمة التي منّ الله بها على قريش حين جعل البيت فيهم، إذ وفرّ لهم بذلك أهم سببين من أسباب الحياة الرغيدة وهما (الأمن) و (الرزق) فحرمة البيت تجعلهم في مأمن مما كان بين العرب في الجاهلية من

قتال وغارات ، وقيامهم بخدمة حجاجه أمنت لهم ان يأتيهم رزقهم رغداً دون مشقة من أهلها أو تعب منهم. وقد عظم سبحانه هذا الرزق بقوله ((ثمرات كل شيء)) أي خالص ثمار كل شيء ، بما تدل عليه (كل شيء) من الكثرة والتنوع ، ولذا جاء تنكير (رزقاً) تأكيداً لعظمة هذا اللون من الرزق ، سواء عدت حالاً من (الثمرات) او مفعولاً لأجله من (يجبى) فانها دالة على كثرة هذا الرزق ، ثم يأتي التعبير (من لَدُنْ) تأكيداً لأختصاصه سبحانه بهذا النوع من الرزق ، إذ لم يحدث ان رزق قوم او مكان غير قريش ومكة مثل هذا الرزق ، ولا تحفى هذه الموافقة الخفية في الآية بين قوله تعالى في أولها (يجبى) بالبناء للمجهول ، ثم قوله تعالى بعد ذلك (رزقاً من لَدُنَا) وكأن في ذلك تذكيراً لأهل مكة بأن ما هم فيه من خير هو رزق من الله ، لم يجدوا فيه ولم يجتهدوا ، ولكنهم لاعتيادهم هذا الرزق، ما عادوا يفتنون الى حقيقته، وبذا يأتي التعبير (من لَدُنَا) تقرّيعاً لهم وتنبهياً لمن غفل عن ذلك منهم ، ولذا جاء ختام الآية ((وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) تأكيداً لهذا المعنى فهو متعلق بقوله (من لَدُنَا) اي قليل منهم يقرون بأن ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفتنون له ^(١٢) ودليل ذلك خوفهم من ان يتخطفهم الناس من أرضهم ، وبذا تتوضح لنا الغاية البلاغية من استعمال التعبير (من لَدُنْ) في هذه الآية الكريمة.

٢- ((وَإِذَا لَأْتَيْنَاهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا)) (النساء/٦٧).

يكاد يكون سياق هذه الآية والآية التي قبلها واحداً ، فهي تتحدث عن اولئك الذين لا يطيعون النبي ﷺ ولا يسلمون له فيما يقضي ، ولذا تدعوهم الآية الى الطاعة لان فيها خيرهم ((ولو انهم فعلوا ما يوعدون به لكان خيراً لهم واشدّ تثبيتاً))

(النساء/٦٦)

ولذا يأتي قوله تعالى ((واذا)) جواباً وجزاءً ، فهناك سؤال مقدر عما سيكون لهؤلاء لو فعلوا ما يوعظون به ؟ فتكون الآية جواباً عن هذا السؤال المقدر... ((لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا اجْرًا عَظِيمًا))

والمراد العطاء المتفضل به عنده وتسميته أجراً لانه تابع للأجر لا يثبت الا بثباته ^(١٣) وبذا يأتي التعبير (من لَدُنْ) مؤكداً لاختصاص الله سبحانه بهذا الأجر العظيم، فقد جاء للتوكيد ، ودليلنا امكانية حذفه من التعبير ، إذ يمكن القول وإذا لَاتَيْنَاهُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ، أو حذف (لَدُنْ) وحدها ، فيكون التعبير ((وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا)) ، ولكن خصوصية هذا الأجر وعظمته أو جبتا وجود هذا التعبير (من لَدُنَّا) فهو أجر عظيم لا يتأتى الا لله القادر على مثله.

٣- ((فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا))

(الكهف/٦٥)

وردت هذه الآية في كتب اللغة والنحو والتفسير شاهداً للفرق بين عند ولدن في الدلالة والاستعمال ، ومن ذلك اعراب (عند) وبناء (لَدُنْ) ، لأنهم توسعوا في عند فأوقعوها على ما هو ملك الشخص ، حضره أو غاب عنه ، بخلاف لَدُنْ فإنه لا يقال لَدُنْ فلان ، الا اذا كان بحضرة القائل ^(١٤) اي ان (عند) أعم من لَدُنْ ، وهذا ما تحقق في هذه الآية الكريمة ففي الجزء الاول منها حين كان مدار الحديث عن الرحمة وهي عامة يمكن أن تصدر عن كل انسان جاء التعبير (من عندنا) ، ولكن في الجزء الثاني حيث مدار الأمر العلم الخاص الذي تلقاه العبد الصالح ، وهو علم الغيب ، وهذا مخصوص به الخالق سبحانه وحده كان التعبير (من لَدُنَّا) أوفق في الدلالة على خصوصية هذا العلم وخصوصية من علمه.

ويلاحظ على الآية تقديم (الرحمة) على (العلم) ولعل سبب ذلك هو تقديم العام على الخاص ، فالرحمة من الله سبحانه وتعالى عامة لكل مخلوقاته لا يكاد يستثني منهم أحداً ، اما علم الغيب فهو خاص لا يهبه سبحانه الا لبعض من عباده ممن يختصهم به ، ومنهم هذا العبد الصالح الذي التقاه النبي موسى عليه السلام وأراد ان يصحبه كي يعلمه مما عُلِّمَ رَشِداً.

كما يلاحظ على الآية الكريمة تقديم المفعول به (رحمة) على شبه الجملة (من عندنا) في اول الآية ((اتيناه رحمة من عندنا)) فيما تأخر المفعول به (علماً) عن شبه الجملة (من لَدُنَّا) في آخر الآية ((وعلمناه من لَدُنَّا علماً)) ولعل سبب ذلك هو قول النحاة وأهل اللغة عن عموم (عند) وخصوص (لَدُن) فالرحمة يمكن ان تصدر من كل رحيم ، ولذا فليست مدعاة للعجب او التخصيص فلا حاجة لتخصيص مصدرها ، أما هذا العلم الخاص بالغيب فهو يثير أكثر من سؤال عن مصدره وكيف تأتي لصاحبه تحصيله ، ولذا تقدم شبه الجملة (من لَدُنَّا) على المفعول به (علماً) تأكيداً لخصوصية مصدر هذا العلم وحصره في الله سبحانه ، كما لا يغيب عن بالنا ان تأخير (علماً) الى آخر الآية ، كي يكون فاصلةً قرآنيةً ، يكون أكثر توافقاً مع السياق الصوتي للآيات متمثلاً بالفواصل القرآنية السابقة واللاحقة لهذه الآية : (حقباً) (سرباً) (نصباً) (عجباً) (قصصاً) (علماً) (رشداً) (صبراً) وانتهائها بألف الاطلاق.

ولابد من التنبيه على المغايرة الأسلوبية بين قوله تعالى في هذه الآية ((**آتَيْنَاهُ رَحْمَةً** **مِّنْ عِنْدِنَا**)) وقوله تعالى في آية أخرى من السورة نفسها ((**رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً**)) (الكهف/ ١٠) ، بأستعمال (من عند) في الآية الأولى و (من لَدُن) في الآية الثانية مع ان كليهما تتحدث عن ايتاء الرحمة ، ولعل سبب هذه المغايرة الاسلوبية ، ان الآية الأولى تتحدث عن رحمة الله التي آتاها الى العبد الصالح (الخنزر) وهي بلا شك ليست

(في جنسها) رحمة مقصورة عليه ، انما يؤتيها الله لكل عباده ، فهي عامة شاملة في نوعها وطبيعتها بذلك ناسبها التعبير (من عند) لأنها أعم من (لَدُنْ) ، وهو ما اقتضى كذلك تقديم (رحمة) على شبه الجملة (من عندنا) فهي الأولى بالتقديم على مصدر هذه الرحمة بعد تقدم الفاعل في قوله تعالى (آتيناها) فقد عرف مصدر هذه الرحمة أولاً أما في الآية الثانية فان الرحمة التي سألها أصحاب الكهف في دعائهم لله ، رحمة خاصة لا يمكن ان تأتي من البشر بعد ان اعتزلوهم وانقطعوا في كهفهم عن كل الناس ، فلم تبق الا رحمة الله كفيلة بخلاصهم وانقاذهم ولذا جاءت (من لَدُنْكَ) تعبيراً عن خصوصية هذه الرحمة وفرادة مصدرها لكونها رحمة الله الخالصة لهم ، وهكذا تقدم التعبير (من لَدُنْ) على (رحمة) خلاف الآية الأولى لكون مصدر هذه الرحمة الأهم وهو الأولى بالتقديم ولا سيما ان كلامهم دعاء متوجه الى الله سبحانه مفتتحاً بقولهم (ربنا) اي ياربنا.

ولعل ما يقوي ما ذهبنا إليه قوله تعالى بعد هذه الآية: ((وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَبِ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا)) (الكهف/١٦) فهم في عزلتهم هذه ، وانقطاعهم عن الناس ، لم يتبق لهم سوى الرحمن يجود عليهم برحمته فيمددهم باسباب البقاء ، ونلاحظ ان في هذه الآية تقدم لفظ (ربكم) على (رحمته) ايضاً ، كما في الآية السابقة بما يؤكد الاختصاص والاهتمام.

٤- ((يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا)) (مريم/١٢-١٣).

لعل في تركيب الآية ((وحناناً من لَدُنَّا)) ما يؤكد ما اثبتناه في الآية السابقة من تقدم المفعول به على شبه الجملة (من لَدُنْ) حين يكون شيئاً خاصاً ، لا يتأتى للجميع ، بل هو هبة من الله سبحانه يخص بها بعضاً من عباده.

ففي هذه الآية ذكر لما أنعم الله به على عبده زكريا وخصه به بأن وهب له غلاماً بعد ان تقدم به السن وكانت امرأته عاقراً ، ثم ذكر ما خص به الله هذا الغلام (يحيى) بأن آتاه الحكم صبياً ، أي فهم التوراة والتفقه في الدين ، وجعله برّاً بوالديه ، حنوناً عليهما عطوفاً بهما وهو معنى (حنانا)^(١٥) ولا شك في ان هذا ، ليس مخصوصاً به نبي الله يحيى ، بل هو أمر شائع بين الناس ، بل هو ما يقتضيه حق الوالدين على الولد ، فلذا جاءت (من لَدُنْ) في الآية تالية للمفعول به (حناناً). على ان تنكير (حنانا) لا يخلو من تعظيم لشأن هذه الهبة التي آتاها الله عبده يحيى ، حين جعله على هذا النحو من الخلق والصفات المتميزة فهي منّة عظيمة من الخالق على عبده (يحيى) ولكنها ليست مخصوصةً به أو هو مخصوصاً بها ، إذ نجدها في كثير مما خلق الله ، حتى تجاوزت بني البشر ، الى بعض من الحيوان.

٥- ((كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا))

(طه/٩٩).

في هذه الآية تأكيداً لخصوصية التعبير ب (من لَدُنْ) فقد وردت هنا للتعبير عن عظم ما أتى الله سبحانه نبينا محمد ﷺ ، وهو الذكر وان هذا الذكر الذي آتيناك يعني القرآن مشتملاً على هذه الأقاويص والاحبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار لذكر عظيم وقرآن كريم^(١٦). وقد تقدم شبه الجملة (من لَدُنْ) على المفعول به (ذكراً) دلالة على خصوصية هذه الهبة وفرادة هذا العطاء وكيف لا يكون كذلك وهو كلام الله خصّ به خاتم الانبياء والمرسلين ، كما أن فيه تأكيداً وهو ان ما ورد فيه من أقاويص الانبياء والمرسلين وأخبار الأمم السابقة ، إنما هي وحي الله سبحانه لنبية محمد ﷺ وليست اساطير الأولين ، كما كان يقول المشركون عنها.

٦- ((وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ هَوًا
لَا تَخْذَنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ)) (الانباء/١٦-١٧).

الآية على لسان الخالق سبحانه في تنزيه ذاته الجليلة عن اتخاذ خلقه السماوات والارض وما بينهما بداعي اللعب أو اللهو كما تسوي الجبابة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب ، وانما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية (١٧)، وقد جاء النفي مشفوعاً بأسلوب الشرط والجزاء باستعمال أداة الشرط (لو) التي تفيد الامتناع للامتناع ، اي امتناع اتخاذ اللهو لامتناع إرادته أصلاً.

ويستوقفنا في الآية استعمال الفعل (نتخذ) بأسلوب المصدر المؤول (ان نتخذ) دون اشتقاق الفعل من الاسم نفسه (اللهو) فيكون التعبير لو اردنا ان نلهو او حتى الاستغناء عنها جميعا فيكون التعبير لو أردنا لهواً ، وبالعودة الى معاجم اللغة نجد الأخذ : التناول والإخاذا الضيعة يتخذها الانسان لنفسه (١٨) وبذا نجد هذا التناسب الخفي بين اتخاذ أهل المال والجاه الضيعع والبساتين والقصور للهو الدنيا ومتاعها ونفي اتخاذ الله سبحانه السماوات والأرض وما بينهما ضيعة للعب او اللهو ، وانتفاء ذلك عنه لأن الحكمة الكامنة وراء هذا الخلق صارفة عن ذلك ، ولو كان فاعلاً ذلك لاستطاعه لأنه على كل شيء قدير .

جاءت (لهواً) بالتنكير دلالة على الأطلاق ، أي أيّ ضرب من اللهو أو فن من فنونه ، وهو أشد توكيداً للنفي كذلك ، ويلاحظ تقدم (لهوا) على شبه الجملة (من لَدُنَا) لعموم اللهو وعدم اختصاصه بالله سبحانه ، بما يؤكد ما قلناه سابقاً من تأخر (من لَدُنْ) مع الأمر أو المعنى العام وتقدمها مع الامر الخاص ، فاللهو متاح للجميع، ولكن إرادة نفيه أو تنزيه الذات الالهية منه أوجدت أكثر من فاصل بين

(لهوا) ، وهي جواب الشرط المتكون من (اللام) وجملة (اتخذ) بما يؤكد بعد هذا اللهو عن الخالق سبحانه، على اقتداره عليه كما أكد ذلك التعبير (من لَدُنَّا) أي من جهة قدرتنا واقتدارنا عليه.

٧- ((قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لَدُنِّي عذرا))

(الكهف/٧٦)

كما تقدم ، فإن هذه الآية هي الموضوع الوحيد في القرآن الكريم الذي جاءت فيه (من لَدُن) مسندة الى غير الله سبحانه ، كما جاءت مضافة الى ياء المتكلم وليس ضمير الجمع (نا) كما في المواضع الستة المتقدمة حيث جاءت مضافة الى الخالق سبحانه.

ولعل تقديم (من لَدُن) هنا على المفعول به (عذرا) لا يخرج عما قررناه من اختصاص هذا الضرب من العذر في صدوره من قلب صادق هو قلب النبي موسى عليه السلام بعد ان تكرر اعتذاره عن خرقه ما اتفقا عليه من المصاحبة ولكن بشرط عدم السؤال عن أفعال العبد الصالح ، وهكذا كان اعتذاره الأخير هذا قويا معبراً عن أسفه عن قلة صبره وعدم ادراكه سر ما يقوم به العبد الصالح من اعمال تخالف ، في ظاهرها ، ما يقتضيه العقل والمنطق ، وهو ما يؤكد حديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم عن هذا بقوله رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك ^(١٩) فكانت عبارته معبرة عن استحيائه وأسفه لقلة صبره ، فتقدم التعبير (من لَدُنِّي) على (عذرا) تأكيداً لعميق أسفه وصدق اعتذاره لما بدر منه .

كما يؤكد ذلك ايضاً استعمال الفعل (بلغت) الذي يعني الوصول ، ولكن يمكن ان يفهم منه ان فيما قام به من تجاوز متكرر على شرط عدم السؤال عما يفعله الرجل الصالح ، بلوغاً للعذر أي كفاية ^(٢٠) ، فضلاً عن ان صياغة الكلام بهذه الطريقة

فيه تأخير للمفعول به (عذرا) بما يجعله فاصلة قرآنية منسجمة مع ما تقدمها وما تأخر عنها من فواصل قرآنية في السورة وهي (خبرا) (أمرا) (إمرا) (صبرا) (عسرا) (نكرا) (أجرا).

ب- ضمير المخاطب :-

والآيات القرآنية التي جاء فيها تعبير (من لَدُنْ) مضافا الى ضمير المخاطب (الكاف) هي :

١- ((رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)) (آل عمران/ ٨).

٢- ((هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)) (آل عمران/ ٣٨).

٣- ((وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا)) (النساء/ ٧٥).

٤- ((إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)) (الكهف/ ١٠).

٥- ((وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)) (الاسراء/ ٨٠).

٦- ((وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا)) (مريم/ ٥).

في هذه الآيات الست جاء التعبير (من لَدُن) مضافا الى ضمير المخاطب (الكاف) في سبعة مواضع وكلها دعاء الى الله سبحانه وتعالى ، وسؤاله الرحمة والذرية الطيبة والولي والنصير والسلطان. ويلاحظ فيها جميعا تقدم (من لَدُن) على المفعول به ، ذلك ان الدعاء موجه الى الله سبحانه فهو المخصوص به وهو القادر على اجابته فكان من الطبيعي ان يتقدم هذا التعبير لتأكيد اختصاصه سبحانه وتعالى بهذا الضرب من الهبة والعتاء. وكذلك كان المسؤول أو الغرض من الدعاء (المفعول به) فيها جميعا نكرات : رحمة ، ذرية ، وليا ، نصيرا ، سلطانا ، ويمكن ان يجتمع في هذا التنكير الاطلاق والتعظيم ، أي مقدار منه أو ضرب منه ، وهو في أحواله جميعا عظيم لأن مصدره الخالق العظيم.

وجاء الدعاء باستعمال الفعل (هَبْ) ثلاث مرات والفعل (اجعل) ثلاث مرات والفعل (آت) مرة واحدة ولعل الفعل (هب) جاء في الآيات الثلاث مقترناً بما هو عطاء أي هبة خالصة من الخالق سبحانه ، وهو ما سأله زكريا من ربه سواء أكان (ذرية طيبة) كما جاء في سورة آل عمران ام (وليا) كما جاء في سورة مريم، وما سأله كذلك الراسخون في العلم من ربهم وهو (رحمة) اي نعمة بالتوفيق والمعونة ^(٢١) اي ان السؤال قد توجه لشيء غير موجود أو غير كائن أصلاً ، فيكون حصوله او تحقيقه هبة من الله الوهاب. فيما جاء الفعل (اجعل) مع ما يمكن ان نسميه (الجعل) اي التحويل والتغيير أي ان الشيء موجود ولكن الدعاء الى الله سبحانه متوجه لتغييره نحو الأجدى والأنفع ، وهو ما توضح في دعاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان في سورة النساء حين سألوا الله ان يجعل لهم وليا وان يجعل لهم نصيرا ، ولا شك في ان هذا الولي أو هذا النصير هو واحد منهم يعثه الله

كي يكون منقذاً لهم ومخلصاً حتى جعل الله لهم من لَدُنْه خير ولي وناصر وهو محمد ﷺ فتولاهم أحسن التولي ونصرهم أقوى النصر (٢٢).

وكذلك الأمر في سورة الاسراء ((وَجَعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)) فهو خطاب للنبي محمد ﷺ في ان يكون دعاؤه لله سبحانه ان يجعل له سلطانا أي قدرة واقتداراً على مقارعة المشركين حتى لا يستضعفوه وان ينصره بمن معه من المؤمنين بدعوته.

اما الفعل (آت) فقد جاء في سورة الكهف على لسان الفتية وهم يسألون الله الرحمة بعد ان هجروا الناس وآووا الى الكهف يعصمهم من شرورهم وغدرهم وهي هنا بمعنى رحمة من خزائن رحمتك وهي المغفرة والرزق والأمن من الاعداء (٢٣) فيكون الفعل (آت) المرتبط بالمجيء هو الأوفق لأنهم اعتزلوا الناس وتقطعت بهم السبل ولا يمكن ان تأتيهم مستلزمات حياتهم الا بأمر منه وبقدرته التي لا حدود لها. وهذا ما يفسر لنا لماذا جاء الفعل (هب) في سورة آل عمران والفعل (آت) في سورة الكهف مع ان المسؤول في كليهما واحد وهو (رحمة) فالرحمة التي سألها الراسخون في العلم في سورة آل عمران أمر معنوي وهم يريدونها لأنهم يفتقدونها ويحتاجونها لتثبت قلوبهم على الايمان ، أما اصحاب الكهف فهم يسألون الله مستلزمات حياتهم وهي موجودة ولكن انقطاعهم عن الناس جعل حصولهم عليها أمراً مستحيلاً لا يتأتى لهم الا بسؤال الله سبحانه ان يهيئ لهم ذلك.

وهو ما نلاحظه كذلك في سورة مريم في دعاء زكريا عليه السلام فهب لي من لَدُنْكَ وليا وسورة النساء ((واجعل لنا من لَدُنْكَ وليا)) فعلى الرغم من ان الأمر المسؤول في السورتين واحد وهو (وليا) ولكن الدعاء جاء في الاولى باستعمال الفعل (هب)

وفي الثانية (اجعل) ومردّد ذلك الى اختلاف سياق الآيتين واختلاف المسؤول عنه فيها وان جاء بالوصف نفسه (وليا) فما سأل زكريا عليه السلام ربه ان يهبه له هو الغلام، وهو يقر بانّه بلغ من الكبر عتيا وامرأته عاقر ، فهو سؤال ما هو غير موجود وما لا يمكن كونه الا بمعجزة من الخالق سبحانه فهو بذلك (هبة) منه سبحانه لعبده زكريا ، اما في سورة النساء فهو اشارة الى ان المراد انسان من بينهم يوليه الله أمرهم بأن يجعله وليا عليهم يتقدّمهم مما هم فيه ، فكان ذلك المنقذ هو نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على ما تقدم.

بقي ان نلاحظ على الآيات القرآنية السابقة أنها جميعاً قد جاء فيها الدعاء مؤكداً بأكثر من اسلوب وهو ما يتسق مع كونه سؤالاً ملحاً ودعاءً عميقاً يتأمل سائله من الخالق سبحانه ان يعجل له في الاستجابة ، وهكذا جاء الدعاء في الآية مؤكداً بقوله تعالى على لسان الراسخين في العلم **((إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ))** (آل عمران/ ٣٨) وفي دعاء زكريا عليه السلام **((إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ))** (آل عمران/ ٣٨) وفي دعاء اصحاب الكهف **((وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا))** (الكهف/ ١٠) وفي دعاء المستضعفين **((وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا))** (النساء/ ٧٥) والدعاء الموصى به نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم **((وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا))** (الاسراء/ ٨٠) ولم يخرج عن ذلك الادعاء زكريا في سورة مريم **((فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا))** (مريم/ ٥) ولعل سبب ذلك ان زكريا عليه السلام قد مهّد لدعائه بما يمكن ان يكون حائلاً دون حصوله على ما يريد ، فقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً وكانت امرأته عاقراً ، فلم يؤكد دعاءه لشعوره بعظم ما يطلبه من الله سبحانه الذي لا يعظم عليه شيء فهو القادر على كل شيء ، ولكن هذه هي طبيعة الانسان ، فجاء دعاءه متوافقاً وما كان يحسه هو وما كان هو عليه .

وفي الآيات كلها كان الدعاء مسبوقاً بلفظة (رب) ثم تخصيص المتكلم نفسه بالدعاء سواء كان بصيغة الجمع (لنا) أو بصيغة المفرد (لي) فهو دعاء خاص بصاحبه سواء أكان مفرداً أم جمعاً.

ج- ضمير الغائب :

وقد جاء ذلك في آيتين كريمتين فقط ، وهما قوله تعالى :

١- ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يَّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)) (النساء/٤٠).

٢- ((فَيَا لَيْتَنِي بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا)) (الكهف/٢).

تقدمت (من لَدُنْ) في الآية الأولى على المفعول به وصفته (أجراً عظيماً) فيما تأخرت عن المفعول به وصفته (بأساً شديداً) في الثانية ، وهذا متسق مع ما عللنا به هذا التقديم والتأخير في الآيات السابقت. فاختصاص الخالق سبحانه بإيتاء الأجر العظيم واقتصاره عليه استدعى تقديم (من لَدُنْ) وإضافتها الى (الهاء) الضمير العائد عليه سبحانه ، على المفعول به وصفته (أجراً عظيماً) فالأجر العظيم لا يكون الا منه ، ولا يصدر الظلم عنه ولو بمقدار مثقال ذرة ، وهو الذي يضاعف الحسنات لعباده ، وبذا يتوضح لنا مسوغ هذا التقديم ، وهو ما كنا قد ذكرناه في آية سابقة من السورة نفسها وهي قوله تعالى ((وَإِذَا لَأْتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا)) (النساء/٦٧).

أما في الآية الثانية فان (البأس) عام ويمكن ان يصدر عن كثيرين غير الخالق سبحانه كالمملوك والجبارة وسواهم ، فلا اختصاص لله سبحانه في ايقاعه ، وبذا تأخرت (من لُدنه) على المفعول به وصفته (بأساً شديداً)، هذا فضلاً عن ان سياق هذه الآية هو الانذار والوعيد ، وبذا تقدم (بأساً شديداً) حتى على بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات بان لهم (اجراً حسناً) ، فالمقام مقام تخويف وانذار حتى انه تكرر في آية اخرى بعد هذه الآية في قوله تعالى ((وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً)) (الكهف/٤) وبذا تضافر أكثر من سبب لتقدم المفعول به وصفته على (من لُدن) في هذه الآية الكريمة.

وفي كلا الآيتين جاء المفعول به (أجراً) و (بأساً) نكرتين والمراد منه التعظيم، فالله سبحانه إذا أراد أن يكافئ عبده بالأجر أجزل له فيه فهو يضاعف الحسنه ويزيد عطائه عليها ، وكذلك هو في موضع العقاب فان بأسه عظيم ، وهو ما يؤكد اتباع المفعولين بالصفتين المعضدتين لكل منهما (أجراً عظيماً) و (بأساً شديداً) فالله سبحانه عظيم في عطائه وفي بأسه.

بقي ان نقول ان في كل ما تقدم ، تقريبا ، نجد أن (من لُدن) مرتبطة بعطاء الله وخيراته على الناس اجمعين ، وبذا نستأنس برأي استاذنا الدكتور فاضل السامرائي في قوله ان لفظ (لدن) مشابه للفظ (اللدن) المأخوذ من اللدانة واللدونة ... وقد وردت كلمة (لدن) الظرفية في القرآن الكريم سبع عشرة مرة كلها في الرحمة والحنان والخير واللين ونحوه ، وهو استعمال قريب لمعنى الليونة ^(٢٤) وحتى في الآية الأخيرة التي جاءت فيها (من لُدن) مقترنة بالبأس الشديد ، فإننا نقول إنها وردت في معرض الانذار والوعيد ، اي ان الله سبحانه لم يوقع بأسه الشديد بعد ، وفي ذلك رحمة لعباده ايضاً فهو رؤوف بهم عطوف عليهم ، ينذرهم ويتوعدهم كي

يحدروه ويسلكوا طريق الحق ويعدلوا عن طريق الباطل الذي فيه هلاكهم ، وبذا فهو ، حتى في هذا الموضوع ، لطيف بعباده رحيم بهم .

- (٢١) الكشاف : ١/ ١٧٦
- (٢٢) م.ن : ١/ ٢٨١
- (٢٣) م.ن : ٢/ ٣٨١
- (٢٤) معاني النحو : ٢/ ١٨٨
- (١) ينظر البيان والتبيين : ١/ ٩٦
- (٢) الكشاف : ٢/ ٢٠٧
- (٣) بيان اعجاز القرآن / ٢٤
- (٤) الكشاف : ٢/ ٢٠٧
- (٥) التبيان ٦/ ٧٦
- (٦) مختار الصحاح / ٦٠٣
- (٧) التبيان : ٨/ ٧٤
- (٨) م.ن : ٨/ ٧٦
- (٩) الكشاف : ٣/ ١٣٣
- (١٠) البرهان : ٤/ ٣١٦
- (١١) الكشاف : ٣/ ١٧٤
- (١٢) م.ن
- (١٣) م.ن : ١/ ٢٧٩
- (١٤) البرهان : ٤/ ٣١٦ وينظر معاني النحو : ٢/ ١٨٧
- (١٥) ينظر الكشاف : ٢/ ٤٠٧
- (١٦) م.ن : ٢/ ٤٤٦
- (١٧) م.ن : ٣/ ٥
- (١٨) العين : ١/ ٧٠
- (١٩) الكشاف : ٢/ ٣٩٨ وينظر التبيان : ٧/ ٧٥-٧٦
- (٢٠) ينظر العين : ١/ ١٩٠

المصادر والمراجع :

- ٧- الكشاف للزمخشري طبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٨ م.
- ٨- مختار الصحاح / محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي ، دار الكتب العلمية ط١ بيروت لبنان ١٩٦٧ م.
- ٩- معاني النحو / د.فاضل صالح السامرائي ، الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - عمان.
- ١- القرآن الكريم.
- ٢- البرهان في علوم القرآن/ للامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م بيروت لبنان.
- ٣- بيان اعجاز القرآن/ لأبي سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي ، ضمن كتاب (ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول سلام دار المعارف بمصر.
- ٤- البيان والتبيين/ ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- ٥- التبيان في تفسير القرآن/ ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ، قدم له الشيخ اغابزرك الطهراني ، المطبعة العلمية في النجف ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.
- ٦- ترتيب كتاب العين للخليل بن احمد الفراهيدي تحقيق د.مهدي المخزومي و د.ابراهيم السامرائي ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ.ق مؤسسة الميلاء - قم.